١ – النقد الأدبى والبلاغة
أيهما الأصل ؟ وأيهما الفرع ؟

يراد بكلمة (بلاغة) أحد معنيين :

المعنى الأول : الملكة . أى القدرة على تأليف الكلام البليغ وهو الأدب .

المعنى الثانى : البلاغة الاصطلاحية (البيان – المعانى – البديع) وهذا المعنى هو المراد لنا . وقد جعلت عنوان المقال هذا السؤال الذى يمكن أن نصوغه صياغة أوجز فنقول : ما العلاقة بين النقد الأدبى والبلاغة ؟.

ونجيب بأن العلاقة بينهما علاقة الأصل بالفرع .. النقد الأدبى أصل والبلاغة فرع . وُجد النقد الأدبى أولا ثم وجدت البلاغة بعد ذلك منبثقة عنه ومستمدة منه ، وقد سبقهما الأدب الإنشائى بقسميه : الشعر والنثر الفنى .

وإذا كان الشعر والنثر الفنى يمثلان الأدب الإنشائى ، فإن النقد والبلاغة وتاريخ الأدب والأدب المقارن تمثل الأدب الوصفى وهو قسيم الأدب الإنشائى ، يأتى على أثره وفى عقبه ليكون فى خدمته وخدمة أصحابه .

والأمثل فى هذه الخدمة أن تكون متعادلة بين مرسليه ومستقبليه ، ولو أن النقاد والبلاغيين العرب بل وغير العرب قد بخسوا مستقبلى الأدب حقهم فلم يدخلوهم فى مجالات دراساتهم إلا من الأبواب الخلفية ، لا نستثنى من ذلك سوى دراسة وحيدة لعالم محدث هو الأستاذ الدكتور محمود ذهنى ، فى كتابه « نظرية الأدب » .

أما مرسلو الأدب من الشعراء والكتاب ، فهم الأبطال المحظوظون الذين شغلوا ولا زالوا يشغلون بؤرة الشعور من سدنة الأدب الوصفى جملة .

والحديث فى هذه الشؤون ذو شجون ، فلنأخذ فيما نحن بصدده ، ولا نستطرد منه إلى غيره .

* * *

وفى سبيل التدليل على أن النقد هو الأصل وأن البلاغة هى الفرع ، ووصولًا بالقارىء إلى قناعة كاملة بهذه الحقيقة العلمية ، نضرب الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى مثلًا .

فقد كانت لزهير فى شعره خصائص فنية ، وخصائص عقلية ، وخصائص خلقية أو اجتماعية ، وقد أعجبت هذه الخصائص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لذاتها ، أو لأن فيه الكثير منها .

ولما كانت البيئة العربية – جاهلية كانت أو إسلامية – بيئة شعرية ، وكان ضغطها على أصحابها من هذه الناحية واضحًا وقويًا ، فقد وجدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه – على ضخامة مسئولياته وثقل تبعاته

– يشارك أهل بيئته فى هوايتهم المفضلة وهى سماع الشعر وتذوقه والحكم عليه وعلى قائله .

حدَّث ابن عباس قال : قال لى عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أنشدنى لأشعر شعرائكم . قلت : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قلت : ولم كان كذلك ؟ قال : كان لا يعاظل بين الكلام ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه[1] .

* * *

إلى هنا عندنا أدب هو شعر زهير، ونقد أدبى هو كلام عمر .

لكن ليس عندنا بلاغة ؛ فإلى هذه اللحظة بل إلى ما بعدها بكثير لم يكن كلام عمر قد قنن .

والنقد بعد مقاييس : مقاييس جودة ، ومقاييس رداءة .

مقاييس جودة إذا كانت الملاحظات التى يلاحظها مستقبل الأدب لصالح الأدب ، وهى لا تكون لصالح الأدب إلا إذا كانت إيجابية عمرية للتحلية أو للتخلية :

أصاب الأديب فى كذا ووفق إلى كذا ، أفكاره منظمة ، عباراته متلاحمة تلوينه لأسلوبه تلوين هادىء ومؤثر ، أما عواطفه فهى عواطف جذابة وطيبة ، وإنها لمن الحيوية والقوة بحيث تدفعك إلى أن تعايش صاحبها ، وإلى أن تشاركه فيها مشاركة وجدانية .

والخلاصة أن الشكل أخاذ والمضمون خصب ، أما المعادل الموضوعى الذى اتكأ عليه خالق الأدب ومبدعه ، فقد كان هذا الخالق

---

(١) نقد الشعر لقدامة ص ٥٨ والعمدة جـ١ ص ٨٠ ودلائل الإعجاز ص ٣٠٤ .

من العبقرية والقوة بحيث أرخى سدوله على مريديه ورسخ جذوره فى نفوسهم .

وعلى العكس من ذلك كله مقاييس الرداءة .

وإنما كانت مقاييس رداءة لأنها سلبية لا إيجابية .

الأديب هذه المرة أخطأ ولم يوفق : أفكاره مضطربة وعباراته مفككة ، أما عواطفه فهشة مائعة ، وهى لا تشجعك على المضى معه إلى نهاية ما قال أو كتب .

والخلاصة أن القالب منفر ، والمحتوى تافه ، أما المعادل الموضوعى فليس موضوعيًا ولا ذاتيًا بل ليس معادلا أصلا .

فى المرة الأولى نجح الأديب وأدبه .

وفى المرة الثانية رسبا .

ولما كان النجاح مفرحًا ومنعشًا وفيه تحقيق كبير للذاتية ، وإنماء عظيم للشخصية ومضىٌ بالإنسانية فى طريق التقدم ؛ فإنه قد نتج فى كل أمة ولكل لغة طائفة من أصحاب الغيرة على أدبها، وقد جند أفراد هذه الطائفة أنفسهم لصياغة المقاييس النقدية صياغة تقنينية عبارة عن قواعد يلقنونها للمبتدىء ، حتى إذا كبر ووجد من نفسه ميًلا إلى الأدب كان عارفا ببواطن الأمور فى هذه الصنعة الصعبة المتعبة ، صنعة الكلام كما سماها ابن عبد الغفور الكلاعى قديمًا ، أو صنعة الأسلوب وفن القول كما سماها أحمد الشايب وأمين الخولى حديثًا .

من هنا ومن هنا فقط جاءت البلاغة بل نشأت وترعرعت ، وكانت نشأتها جد طبيعية ، ولا ينافسها فى نشأتها الطبيعية تلك إلا النقد الأدبى ، كلاهما كان رد فعل لما سبقه :

النقد رد فعل للأدب، والبلاغة رد فعل للنقد ، ولو أن ثمة بعض التفاوت فى لزوم رد الفعل للفعل ، وفى حتميته بين كلّ من النقد والبلاغة ، بمعنى أن الأدب لا يمكن أن يمضى دون رد فعل له من النقد .

أما النقد فقد كان يمكن أن يمر دون رد فعل له من القواعد والقوانين البلاغية ، وما أغناه بردود أفعاله النافعة والممتعة عن هذه القواعد والقوانين التى حسبت عليه لا له . بحسبه دوائر تأثيره فى توضيح النص الأدبى إذا كان النقد تفسيريًا ، وفى تقييمه وإعطائه درجته الفنية إذا كان النقد حكميًا ، وسنلمس ذلك من إلمامنا بنشأة كل منهما.

نشأة النقد الأدبى وتطوره :

لابد للأثر الأدبى فى نفوس الناس من صدى يتمثل فى استجابتهم له واحتفائهم به أو فى نفورهم منه وازورارهم عنه ، يقف هذا الصدى عند ذلك الحد حينًا ويتعداه إلى إصدار بعض الأحكام العامة بالجودة أو بالرداءة أحيانًا ، وترسل هذه الأحكام مبهمة موجزة دون مقدمات أو حيثيات تارة وقد تحلل أو تعلل تارة أخرى .

على هذا الوجه وبتلك الكيفية نشأ النقد الأدبى عند العرب ، بل على هذا الوجه وبتلك الكيفية نشأ النقد الأدبى عند غير العرب فى القديم والحديث .

ونشأته على هذه الصورة نشأة طبيعية تقتضيها وتحتمها عملية الإنتاج الأدبى ؛ ففى داخل كل أديب منشىء ، فنان ناقد يقوّم أدبه ويعدّله بالتقديم والتأخير ، وبالحذف والزيادة ، يتجاوز الخطأ إلى الصواب، ويتخطى الفاضل إلى الأفضل وهكذا .

هو يصدره ، ثم يكون هو مستقبله الأول ، وعلى صفحة قلبه وعقله ينعكس صداه قبل أن يخرج إلى الحياة ، يغنيه شعرًا على أوتار روحه ، ويوقعه لحنًا على دقات قلبه ، فإن ارتاح له ورضى به عفا عنه وأذاعه فى الناس وإلا ، أمسكه ووكله إلى الناقد الكامن فيه .

فلم يكن الشاعر فى زهير هو صاحب الحوليات إذًا ، وإنما صاحب الحوليات هو الناقد المقيم فيه ، ولو وقعت لنا المسودات التحريرية أو الشفهية لكل عملية أدبية لوجدنا أنها أطول منها بكثير ، فلم تكن عملية الخلق الأدبى للقصيدة تستغرق من الفنان المنشىء غير وقت قصير ، ربما دفعة أو دفعتين من دفعات الإلهام .

أما عملية التدبيج والترميج أى عملية النقد ، فقد كانت تقتضيه أو تقتضى الناقد المستكن فيه الوقت الطويل والجهد الكثير . يقول الجاحظ :

« ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حوّلا كريتا وزمنا طويًلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه ؛ اتهامًا لعقله وتتبعًا على نفسه ، فيجعل عقله زمامًا على رأيه ، ورأيه عيارًا على شعره ؛

إشفاقًا على أدبه . وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات ، والمقلدات ، والمنقحات ، والمحكمات »[1].

ويقول ابن رشيق وهو بصدد الحديث عن زهير وطريقته فى نظم الشعر :

« إنه كان يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفًا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ منها فى ساعة أو ليلة »[2].

* * *

ولم يكن زهير ليجهد نفسه ويحملها على هذا الضنى والعناء إلا لعلمه أن من بين يديه ومن خلفه وعيًا نقديًا لن يفلته من المؤاخذة لو قصر أو قعد به العجز عن التجويد ، وإن غفل فلن يغفل عن رفقائه فى الصنعة شياطين الإنس من الشعراء ؛ فقد كانوا متربضين ببعضهم البعض للتنافس الشديد فيما بينهم وهم مفتحو العيون يقظون ، وكانت أقل عثرة تقعد بصاحبها وقتًا غير قصير ، ولهذا رأيناهم يشفقون على أدبهم كما قال الجاحظ ، أو يخافون من أن تروى لهم أعمال فنية معيبة كما يقول سويد بن كراع :

أبيت بأبــــوب القــوافى كأنمــا ... أصادى بها سربًا من الطير نـزعــا
أكـالئها حتى أعــرس بعــدمـــا ... يكــون سـحيرًا أو بعيدًا فأهجعـا
إذا خفت أن تُروى علىَّ رددتهـــا ... وراء التراقى خشــيةً أن تصدعــا
وجشمه خوف ابن عفـــان ردهـا ... فثقفها حـــولا جريدًا ومربعـــا[3]

(1) البيان والتبيين ص ٢ ص ٦ ، ٧ .
(2) العمدة جـ ١ ص ١٠٨ .

وفى هذا المعنى نفسه قال ابن رشيق ما قال .

* * *

وإذا كانت اللغة الأدبية عند العرب الجاهليين سليقة فيهم وطبعًا لهم يعبرون بها عن مواقف حياتهم فى سهولة ويسر ، وفى صحة لغوية واستقامة ضبط ، فقد كانت مبادىء النقد أو أسسه التى عنها يصدرون وهم ينقدون شيئًا غير واضح أو محدد .

أجل ، إنها كانت مفاهيم مسلما بها ، لكنها لم تكن مرئية أو مروية ، إنما الذى كان يرى أو يروى هو أثرها ، أثرها فى هذا الشعر المهذب المصقول ، فلا يخالجنا شك فى أن الشعر الجاهلى الذى يحتل من تاريخنا الأدبى مركز القمة أو قريبًا منها قد تناولته من قبل يد النقد والتثقيف ، لكن أسلافنا العرب – لبداهتهم أو فطرتهم – لم يكونوا يعنون إلا بالبناء الأدبى فى شكله النهائى أى بالهيكل الفنى بعد أن ينهض ويقوم .

ولذلك فمن المؤكد أنه إذا كان قد ضاع من تراثنا شعر كثير ، فقد ضاع منه نقد أكثر ، وفى ضباب الزمن توارى عنّا طور كبير وخطير من أطوار نقدنا الأدبى . وليس استنتاجًا محضًا ما أقول : فقد قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير »[1].

وجاء المؤرخون فوجدوا حقل النقد قاحلًا مجدبًا .

---

(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٢ .

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٢ .

واضطربوا إذ لم يجدوا مادة عملهم ، لم يجدوا حقائق ، لم يجدوا حلقات السلسلة أو على الأصح لم يجدوا حلقاتها الضاربة فى التيه ، فلم يصفوا – وهم عدول – إلا ما رأوه وشاهدوه وهو هذا الشعر الجميل المنبثق عن عملية الصقل الطويل . أما ما تمثلوه ، فقد اختلفت فيه وجهات نظرهم وتباينت لذلك آراؤهم .

١ – فمن قائل : إن النقد الأدبى على امتداد العصر الجاهلى يمثل دور الطفولة ، أى أنه كان فطريًا بدائيًا ساذجًا ليست له أصول ثابتة ولا قواعد مقررة ، وهم معظم المشتغلين بالدراسات النقدية فى عصرنا الحديث[١].

٢ – ومن قائل : إن هذه الطفولة لا يمكن أن تكون امتدت إلى اخريات العصر الجاهلى الذى بلغ من رقى ذوقه الفنى ما جعله أهلاً لتلقى معجزة الإسلام الخالدة وهى القرآن الكريم[٢].

ومنطق التطور يؤيد الرأى الثانى ؛ فقد رأينا أن الأدب ونقده توأمان ، أى أن عملية النقد بالتعديل والتبديل وبالتغيير والتحوير سواء فى الفكرة الأدبية أو فى الصياغة الفنية تصحب فى نفس الأديب عملية الخلق والإبداع ، هذا والأدب بعد لايزال سرًا فى ضمير صاحبه أو مكتوبًا فى قرطاس كاتبه ، حتى إذا ما ذاع وشاع ، تذوقه مستقبلوه ثم لم يلبثوا أن نقدوه وتتبعوا الصفات البارزة فيه ، ثم تطلعوا إلى تحليل هذه

---

(١) منهم المرحوم طه إبراهيم والأستاذ الدكتور بدوى طبانة والأستاذة الدكتورة سهير القلماوى والأستاذ الدكتور أحمد الحوفى والأستاذ الدكتور شوقى ضيف والأستاذ فؤاد البستانى ، وغيرهم ..

(٢) الدكتورة عائشة عبد الرحمن فى مجلة الأدب عدد نوفمبر سنة ١٩٥٩م .

الصفات وتصنيفها والانحياز بها إلى ناحية الصياغة أو إلى ناحية الفكرة أو إليهما معًا ، كما ردوا شيئًا منها إلى نفس صاحبها أو بيئته المحيطة به ، حتى إذا اتضح ذلك جيدًا ، وتبلورت منه أو عنه بعض الأسس والأصول ، أخذوا يطبقونها على ما تبدعه قرائح الشعراء مرة أخرى ، ولهذا لم يجمدوا على طريقة واحدة فى كل العصور ، بل كانوا كلما اصطبغت ثقافتهم أو حياتهم بصبغة خاصة تلون معها اتجاههم فى النقد ؛ فهم مرة كلاسيكيون تقليديون ، يرون أن البراعة فى جريان الكلام على طريقة القدماء ، وتارة رومانتيكيون ابتداعيون يعجبهم الأدب إذا تغنى بجمال الطبيعة ونوازع النفوس .

وربما جذبتهم المعانى وأسرارها فى عصر من العصور ، ثم استهوتهم الألفاظ وزخرفتها فى العصر الذى يليه ، ولقد يأتى عليهم حين من الدهر وكل همهم الأثر الأدبى فى نواحى تفكيره وتصويره وتعبيره ، ثم يأتى عليهم حين آخر فيدرسون الأثر الأدبى فى صلته بمنشئه ، أو تكيفه مع بيئته ، أو تأثيره فى متذوقيه .

وهذه كلها أطوار ومراحل فى تاريخ النقد الأدبى العربى منذ كان إلى الآن .

ولن يتسع مقال مهما طال لتوضيح خط سير النقد الأدبى عبر الزمن .

فلنستعض عن ذلك بهذا الثبت الذى يسجل – مجرد تسجيل – أسماء المؤلفين فيه وعناوين مؤلفاتهم مرتبة على حسب تاريخ وفاتهم .

والأمل أن يكون هذا الثبت مجالًا بل مجالات لدراسات لاحقة منى أو من غيرى والله الموفق .

* * *

أولاً : فى المشرق

مسلسل	المؤلف	وفاته	مؤلفاته
١	بشر بن المعتمر	٢١٠ هـ	صحيفته
٢	محمد بن سلام الجمحى	٢٣٢ هـ	طبقات الشعراء
٣	الجاحظ	٢٥٥ هـ	الحيوان – البيان والتبيين.
٤	ابن قتيبة	٢٧٦ هـ	أدب الكاتب – الشعر والشعراء.
٥	المبرد	٢٨٥ هـ	الكامل
٦	ابن المعتز	٢٩٦ هـ	البديع – طبقات الشعراء المحدثين – السرقات.
٧	ابن طباطبا	٣٢٢ هـ	عيار الشعر.
٨	الصولى	٣٣٥ هـ	أخبار أبى تمام.
٩	قدامة بن جعفر	٣٣٧ هـ	نقد الشعر.
١٠	أبو الفرج الأصفهانى	٣٥٦ هـ	الأغانى.
١١	ابن العميد	٣٦٠ هـ	نُقول.
١٢	الآمدى	٣٧١ هـ	الموازنة بين أبى تمام والبحترى
١٣	الصاحب بن عباد	٣٨٥ هـ	الكشف عن مساوىء شعر المتنبى
١٤	القاضى الجرجانى على ابن عبد العزيز	٣٩٢ هـ	الوساطة بين المتنبى وخصومه.

مسلسل	المؤلف	وفاته	مؤلفاته
١٥	أبو هلال العسكرى	٣٩٥ هـ	الصناعتين : الكتابة والشعر.
١٦	الثعالبى	٤٢٩ هـ	اليتيمة.
١٧	ابن سنان الخفاجى	٤٦٤ هـ	سر الفصاحة
١٨	عبد القاهر الجرجانى	٤٧١ هـ	أسرار البلاغة – دلائل الإعجاز
١٩	ابن الأثير	٦٣٧ هـ	المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر. الاستدراك. الجامع الكبير.
٢٠	ابن الزملكانى	٦٥١ هـ	التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن.
٢١	ابن أبى الإصبع	٦٥٤ هـ	تحرير التحبير – بديع القرآن. الخواطر السوانح فى أسرار الفواتح.
٢٢	عبد الوهاب الخزرجى	٦٥٥ هـ	معيار النظار فى علوم الأشعار.
٢٣	ابن أبى الحديد	٦٥٦ هـ	شرح نهج البلاغة – العبقرى الحسان – الفلك الدائر على المثل السائر.
٢٤	أبو الثناء شهاب الدين محمود الحلبى	٦٧٢ هـ	حسن التوسل إلى صناعة الترسل.
٢٥	ابن تيمية	٧٢٨ هـ	الإيمان.

مسلسل	المؤلف	وفاته	مؤلفاته
٢٦	ابن الأثير الحلبى المصرى نجم الدين أحمد بن إسماعيل	٧٣٧ هـ	ألف والده كتاب (كنز البراعة فى أدوات ذى اليراعة) وقد اختصره هو وسمى مختصره (جواهر الكنز).
٢٧	جلال الدين القزوينى	٧٣٩ هـ	تلخيص المفتاح – الإيضاح.
٢٨	يحيى بن حمزة العلوى	٧٤٩ هـ	الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.
٢٩	صفى الدين الحلى	٧٥٠ هـ	النتائج الإلهية فى شرح الكافية البديعية.
٣٠	ابن قيم الجوزية	٧٥١ هـ	كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان. التبيان فى أقسام القرآن.
٣١	صلاح الدين الصفدى	٧٦٤ هـ	جنان الجناس – فضّ الختام عن التورية والاستخدام. الغيث المسجم فى شرح لامية العجم. نصرة الثائر على المثل السائر تمام المتون فى شرح رسالة ابن زيدون (الجدية).

مسلسل	المؤلف	وفاته	مؤلفاته
٣٢	ابن نباتة المصرى	٧٦٨ هـ	مطلع الفوائد ومجمع القرائد. سجع المطوق. خبز الشعير. سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدوم (الهزلية).
٣٣	بهاء الدين السبكى	٧٧٣ هـ	عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح.
٣٤	أبو جعفر الأندلسى	٧٧٩ هـ	طراز الحلة وشفاء الغلة.
٣٥	ابن جابر الأندلسى	٧٨٠ هـ	المعيار فى نقد الشعر.
٣٦	غز الدين الموصلى	٧٨٩ هـ	التوسل بالبديع إلى التوصل بالشفيع.
٣٧	على بن خلف	٧٩٢ هـ	مواد البيان.
٣٨	القلقشندى	٨٢١ هـ	صبح الأعشى فى صناعة الإنشا.
٣٩	بدر الدين الدمامينى	٨٢٧ هـ	نزول الغيث الذى انسجم على شرح لامية العجم.
٤٠	ابن حجة الحموى	٨٣٧ هـ	ثمرات الأوراق – كشف اللثام عن التورية والاستخدام . بروق الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم تأهيل الغريب. ثبوت الحجة على الموصلى والحلى وهو المشهور باسم خزانة الأدب.

مسلسل	المؤلف	وفاته	مؤلفاته
٤١	شهاب الدين الأبشيهى	٨٥٠ هـ	المستطرف من كل فن مستظرف.
٤٢	شمس الدين محمد بن على النواجى .	٨٥٩ هـ	حلبة الكميت. الشفاء فى بديع الاكتفاء روضة المجالسة وغبطة المجانسة. عقود اللآل فى الموشحات والأزجال. التذكرة فى الأدب. نزهة الألباب فى أخبار ذوى الألباب. مقدمة فى صناعة النظم والنثر. الدر النفيس فيما زاد على جنان الجناس للصفدى وأجناس التجنيس للحلى. المحجة فى سرقات ابن حجة.
٤٣	جلال الدين السيوطى	٩١١ هـ	الإتقان فى علوم القرآن. المزهر فى علوم اللغة.

ثانيًا : فى المغرب

مسلسل	المؤلف	وفاته	مؤلفاته
١	عبد الكريم النهشلى	٤٠٥ هـ	الممتع .
٢	القزاز القيروانى	٤١٢ هـ	التعريض والتصريح ما أخذ على المتنبى. أبيات معان فى شعر المتنبى. شرح رسالة البلاغة أدب السلطان والتأدب له. ما يجوز للشاعر فى الضرورة.
٣	أبو إسحق إبراهيم بن على الحصرى	٤١٣ هـ	زهر الآداب وثمر الألباب. جمع الجواهر فى الملح والنوادر.
٤	ابن رشيق القيروانى	٤٥٦ هـ	العمدة. قراضنة الذهب. أنموذج الزمان فى شعراء القيروان.
٥	ابن شرف القيروانى	٤٦٠ هـ	أبكار الأفكار. رسائل الانتقاد وهو المسمى بأعلام الكلام.
٦	ابن سعيد المغربى	٦٧٣ هـ	المغرب فى حلى المغرب. المشرق فى حلى المشرق. ملوك الشعر. عنوان المرقصات والمطربات.
٧	حازم القرطاجنى	٦٨٤ هـ	منهاج البلغاء وسراج الأدباء
٨	العبدرى	٦٩٢ هـ	الرحلة المغربية
٩	ابن خلدون	٨٠٨ هـ	المقدمة.

نشأة البلاغة وتطورها :

مما ينسب إلى رسول ﷺ قوله : « المرء بأصغريه : قلبه ولسانه » .

وقد نظم الشاعر الحكيم هذا المعنى فى نصف بيت هو :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ..

وإذا كان لسان المرء أحد شقيه ، فإن لغة الأمة كذلك أحد شقيها ، ولعله من هنا جاء اهتمام الأمم بلغاتها تدوينًا ودراسة ، حتى إذا ثبتت أركانها واستقرت أصولها أذاعتها وعلمتها وشجعت على إجادتها وإتقانها ، إيمانًا منها بأن اللغة هى الجانب المعنوى فى الإنسان شعورًا وفكرًا .

وقد بعث الله فى أمة العرب رسولًا منهم ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، كتاب العربية الأول وصمام الأمان لها ضد عوامل التآكل المسلطة على التراث والناس .

وبالهجرة والفتوح الإسلامية انتشرت اللغة العربية شرقًا وغربًا ، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ، واختلط الفاتحون العرب بالسكان الأصليين للبلاد المفتوحة ، فجرت كلمات أعجمية على ألسنتهم مثلما غزت العربية ألسن العجم .

وكان من نتيجة ذلك أن وقع بعض الاعوجاج فى ألسنة بعض العرب ، فخاف الغيورون على اللغة من أن تفسد ملكة العربية ويضطرب لسان أهلها .

وقد كان هذا الخوف ظاهرة صحية ؛ فمنه كان الانطلاق نحو التأليف فى علوم اللغة ، وتوجهت عناية العلماء أول ما توجهت إلى

ما يحفظ هذه اللغة من جهة إعرابها وهو ما عرف بعد بالنحو ، وإلى ما يحفظها من جهة بنيتها وهو ما عرف بعد بالصرف ، ثم إلى ما يحفظها من جهة مادتها وهو ما عرف بعد بمتن اللغة .

وإذا كان فقه العربية ، وفهم فسلفتها ، ومعرفة صورها ، والإحاطة بدقائقها الفنية.

نقول : إذا كان ذلك كله وغيره سهلا على العربى فإنه صعب على المستعرب بل إنه صعب على غير المشتغل بالأدب من العرب .

ها هو ذا أبو بعقوب يوسف الكندى – وهو من هو فى الفلسفة والمنطق والرياضة – يقصد أبا العباس المبرد ويقول له : إنى لأجد فى كلام العرب حشوًا .

ويستفسر منه المبرد عن الموضع الذى وجد فيه ذلك الحشو ، فيجيب : أجدهم يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم . الألفاظ مختلفة والمعنى واحد .

ويأخذ الحماس أبا العباس فيقول : بل المعانى مختلفة ؛ فالأول إخبار عن قيامه ، والثانى جواب عن سؤال سائل ، والثالث جواب عن إنكار منكر .

ولقد كان هذا الرد من المبرد هو الأساس الذى أقام عليه علماء البلاغة فيما بعد ما سموه (أضرب الخبر) .

وليس هذا فقط ، بل إن حيرة المستعربين فى فهم بعض الأساليب العربية قد تجاوزت كلام العرب إلى آيات من القرآن الكريم .

بينا أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوى البصرى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ فى مجلس الفضل بن الربيع وزير المأمون إذ سأله سائل عن معنى قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » .

لعله استغرب تشبيه ثمر شجرة الزقوم برؤوس الشياطين بسبب أن المشبه به مجهول .

وقد أجاب أبو عبيدة بما هو من صميم العربية ومألوف استعمالها قال : قد كلم الله العرب على قدر كلامهم ، هو على حد قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشـــرفىُّ مضـــاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال[1]

يريد أن المشبه به فى البيت مجهول كذلك ، وأن الغرض من التشبيه فى البيت والآية إنما هو إبراز المشبه فى صورة قبيحة منفرة .

وعلى الرغم من أن الفضل بن الربيع قد استحسن الرد ، ومن أن السائل قد اقتنع به ، إلا أن أبا عبيدة قد أحسَّ بضمير العالم أن الناس بحاجة إلى زيادة بيان فى هذا الموضوع الخطير ، وقد فعل بأن تقصّى ما ورد فى القرآن الكريم من الألفاظ التى أريد بها غير معناها الحقيقى ، وجمعها فى كتاب سماه (مجاز القرآن) ، لعله أول كتاب ألف فى البلاغة العربية .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه للمرحوم محمود مصطفى جـ ٢ ص ١٨٧ .

وبعد أبى عبيدة جاء أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، فأورد فى كتابه (البيان والتبيين) مباحث كثيرة عن الفصاحة والبلاغة والبيان والسجع والبديع .

ولما كان بشار ومسلم وأبو تمام وغيرهم يأتون فى شعرهم بضروب من البديع ، فقد جمع ابن المعتز من أنواعه سبعة عشر نوعًا أودعها كتابه المعروف باسم (البديع) وقد قال فيه تقريظًا له :

« وما جمع قبلى فنون البلاغة أحد ، ولا سبقنى إليه مؤلف ، ومن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى إضافة شىء من المحاسن إليه فله اختياره » .

وقد كانت هذه دعوة من ابن المعتز استجاب لها ولبّاها معاصره قدامة بن جعفر ، فقد جمع فى كتابه (نقد الشعر) عشرين نوعًا من أنواع البديع ، توارد مع ابن المعتز على سبعة منها ، وسلم له ثلاثة عشر تضاف إلى السبعة عشر التى جمعها ابن المعتز فتكون جملة ما جمعاه ثلاثين نوعًا .

وبعد قدامة ألف أبو هلال العسكرى كتابه (الصناعتين : الكتابة والشعر) وقد صدره ببيان معنى البلاغة ، وأفرد التشبيه فيه بباب هو الباب السادس ، والسجع والازدواج بباب هو الباب الثامن . أما الباب التاسع فقد قصره على البديع وعدَّ منه خمسة وثلاثين نوعًا منها الاستعارة والكناية والتعريض والتذييل والاعتراض .

وبهذا التوسع فى إطلاق اسم البديع على كل ألوان البلاغة وصلت أنواعه فى كتاب العمدة لابن رشيق إلى تسعين نوعًا .

وفى العمدة – غير ذلك – أبواب للبلاغة والبيان والإيجاز والمجاز والتمثيل والتشبيه والاستعارة والإشارة وغير ذلك من أضرب البلاغة ومباحثها .

ونلاحظ أن هذه المباحث قد ظلت مختلطة وغير متمايزة حتى عند عبد القاهر الجرجانى الملقب بشيخ البلاغة . نقول ذلك على الرغم من قولهم عنه :

إنه أول من هذب مسائل البلاغة وأرسى قواعدها ورتبها وبوبها .

* * *

وقد بقى الأمر على هذا الاختلاط حتى جاء أبو يعقوب يوسف السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦هـ فوضع كتابه (مفتاح العلوم) وجعله ثلاثة أقسام ، بسط فى القسم الثالث منه علوم البلاغة بما سمح له أن يقول عن نفسه :

« إنه قضى بتوفيق الله منها الوطر » .

وقد جعل كل ما يتعلق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، علم المعانى ، وكل ما يخص إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه ، علم البيان .

أما ما يتعلق بتحسين الكلام وتزيينه بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة فقد جعله علم البديع .

وللسكاكى على البلاغة العربية فضلان .

الأول : أنه فصل بين علومها ، وجعل كل علم منها قائمًا بنفسه .

والثانى : أنه – من وجهة نظرى – مسك الختام فى خط سير البلاغة العربية ؛ كل من جاء بعده فبظله استظل ومن بستانه قطف .

كان قصارى جهد البلاغى بعد السكاكى أن يلخص كتابه أويشرحه .

وأحسن تلاخيص المفتاح تلخيص الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩هـ ، فقد ضمنه القواعد الموجودة فى القسم الثالث من المفتاح بعد أن دعمها بما كان ينقصها فى موطنها الأصلى من الشواهد والأمثلة .

وعلى الرغم مما قصد إليه صاحب التلخيص « من التسهيل على طالبيه ، تقريبًا لتعاطيه » . فإنه شعر بعد صدوره بحاجة الناس إلى بسطه وإيضاحه ، ولم يشأ أن يلجأ إلى الطريقة التى شاعت فى عصره ، وهى تطريز التلخيصات والمتون بالشروح والحواشى ، وإنما عمد إلى معالجة موضوعاته مرة ثانية فى كتاب مستقل سماه (الإيضاح) قال فى مقدمته :

أما بعد ، فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها ترجمته بالإيضاح وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته (تلخيص المفتاح) وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة وفصلت معانيه المجملة ، وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه مفتاح العلوم ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبد القاهر رحمه الله فى كتابيه (دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) ، إلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما ، فاستخرجت زبدة ذلك كله

وهذبتها ورتبتها حتى استقر كل شيء منها فى محله ، وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكرى ولم أجده لغيرى ، فجاء بحمد الله جامعًا لأشتات هذا العلم .

والقزوينى يعترف فى صدر الإيضاح كما اعترف فى صدر التلخيص بأن جهوده فى هذين الكتابين مستمدة من الجهود التى بذلها عبد القاهر والسكاكى وغيرهما ابتداء بالجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، وانتهاء ببدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦هـ بما فى ذلك ابن قتيبة والمبرد وابن المعتز وابن طباطبا وقدامة وأبوهلال وابن رشيق وابن سنان والزمخشرى والرازى وابن الأثير وابن الزملكانى وابن أبى الأصبع .

هؤلاء وغيرهم درس القزوينى أعمالهم واستخرج زبدتها ورتبها حتى استقر كل شيء منها فى مكانه بعد أن أضاف إليها ما أداه إليه فكره ولم يجده لغيره .

* * *

ويجب التنبيه إلى أن حقل البلاغة غير بعيد عن حقل النقد ؛ فهما متجاوران ، بل إن حقل البلاغة إنما هو امتداد لحقل النقد ، من حيث إن القواعد البلاغية قد كانت فى الأصل مقاييس نقدية على هيئة ملاحظات أبداها النقاد على الأعمال الأدبية ، ثم تبلورت واتخذت شكل القوانين على يد البلاغيين .

وقد ترتب على هذا أننا وجدنا عندهم كثيرًا من النظرات بل من النظريات النقدية ، منها ما تخلل البلاغة أى اختلط بها ، ومنها

ما استقل عنها ولو أنه معها فى كتبها . وكذلك الأمر فى كتب النقد الأدبى لما سبق .

فلا عجب – والحالة هذه – أن يلتقى النقد بالبلاغة ، وأن تلتقى البلاغة بالنقد فى تاريخهما الطويل أكثر من مرة على أيدى رجال موزعين بينهما أو قد أحاطوا بهما فتكلموا فيهما على اختلاف فى الميل إلى أحدهما أو زيادة فى الاهتمام به .

وذلك مثلما يطرى الأب صديقًا لابنه بقوله :

ما أجمل سلوك صديقك فلان :لقد كان نبيلًا فى كذا وشهمًا فى كذا ولبقًا وهو يقول كذا وكذا .

فإن أردت أن تظفر بالثناء الذى ظفر به فاعمل كذا وكذا ، أو قل : كذا وكذا .

أو مثلما يذم الأب زميلًا لابنه بقوله : ما أقل حياء زميلك فلان بعمله كذا وكذا ، وما أثقل ظله بقوله : كذا وكذا ، فلا تكن مثله فى فعله ، ولا تقل مثل قوله .

هنا : الثناء نقد ، والهجاء نقد ، أما الأوامر والنواهى فبلاغة .

والمثل المضروب يقرب المسافة بينهما بل يوضح تلاحمهما ، وأن الانتقال من النقد إلى البلاغة تحرك فى نفس الاتجاه .

فليس بلازم إذًا أن يكون الرجل رجل نقد لا بلاغة ، أو رجل بلاغة لا نقد ، لأنه ليس ما يمنع من أن يكون رجل نقد وبلاغة معًا ، والتاريخ معنا يؤيدنا :

فابن المعتز كان ذا عمقين متساويين فى النقد والبلاغة ، وقد ألف فيهما : (طبقات الشعراء) و (السرقات) و (البديع) .

والجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين) قد بسط جناحيه على معظم مسائل النقد والبلاغة .

وقدامة ينقد فيرده النقاد إلى البلاغة ، ويتكلم فى البلاغة فيرده البلغاء إلى النقد .

وبوسعنا أن نقول : إنه كان ناقدًا وكان عالمًا بالبلاغة ، ربما بنفس الدرجة.

وهكذا نجد أن حقل النقد مسور بالبلاغة ، وأن حقل البلاغة مسور بالنقد ، لكن تظل بينهما بعض الفروق الموضوعية التى تصلح أية عبارة من العبارات الآتية لتوضيحها وهى :

النقد مقاييس ، والبلاغة قواعد .

النقد فن ، والبلاغة علم .

النقد ينظر إلى ما كان ، والبلاغة تتطلع إلى ما سكيون .

النقد لا يتدخل فى عمل الأديب وهو يعمله ، بل بعد أن يفرغ منه ويدعه ، أما البلاغة فعينها على الأديب وهو يعمل بل قبل أن يعمل .

الناقد أخ وصديق للأديب ، أما البلاغى فمعلم ومؤدب لناشئة الأدب .

المقاييس الحرة فى النقد الأدبى تتحول فى البلاغة وبها إلى قواعد وقوانين حتمية .

وحتى لا نحرم البلاغة حظها من الفنية نقرر أن حتمية قواعدها وقوانينها ، هذه الحتمية ليست لصحة التراكيب وسلامتها من الخطأ ، بل لتوفير الجمال لها والإعجاب بها ، فهى حتمية فنية وليست حتمية علمية ، حتمية بلاغية وليست حتمية لغوية ، وأقصى مدها لهذا هو :

(ينبغى) (يحسن) (يجدر) ونحوها .

يقول حازم القرطاجنى : « فقد تبيَّن أن أفضل المواد المعنوية فى الشعر ما صدق وكان مشتهرًا ، وأحسن الألفاظ ما عذب ، ولم يُتْتَذَلْ فى الاستعمال » ، ثم يستدرك على نفسه بقوله :

« وكلامنا ليس واجبًا على الشاعر لزومه بل مؤثر حيث يمكن ذلك »[1].

وفى باب الفصل والوصل من كتاب (عروس الأفراح) نقرأ قول السبكى :

« حيث قلنا فى هذا الباب : يجب الوصل ، أو قلنا : يجب الفصل ، نريد به الوجوب بحسب البلاغة وتطبيق الكلام على مقتضى الحال ، ولا نعنى الوجوب بحسب اللغة »[2].

* * *

ولتحديد علاقة البلاغة بالنقد أوّلا ، وعلاقة النقد والبلاغة بالأدب ثانيًا نعطى هذه الإشارات السهمية :

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص ٨٣ .
(٢) عروس الأفراح جـ ٣ ص ١٥ .

أدب ← نقـد ← بلاغة ← أدب ← نقـد ← بلاغـة ← أدب ← نقـد ← بلاغة ...

وهكذا تمضى الحياة بالأدب وبالنقد وبالبلاغة ، كل فى فلكه ، لكن الجاذبية العلمية فيما بينها تظل ثابتة ومنضبطة.

فلا النقد الأدبى يسبق الأدب .

ولا البلاغة تسبق النقد الأدبى .

الأدب مادة النقد الأدبى .

والنقد الأدبى مادة البلاغة .

وهذا يعنى :

أن النقد الأدبى أصل للبلاغة .

وأن البلاغة فرع للنقد الأدبى.

* * *